المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الخمسين

١ مارس (آذار) سنة ١٩١٧ — الموافق ٧ جمادى الاولى سنة ١٣٣٥

لورد كرومر

نعى البرق قطباً من اقطاب الامبراطورية البريطانية وادارياً حازماً من اشهر رجال الادارة في هذا العصر ومصلحاً عظيماً بات اسم مصر الحديثة مقروناً باسمهِ لما كان بينهُ وبينها من شديد الارتباط في دور اصلاحها وارتقائها الاخير : ألا وهو لورد كرومر صديق وادي النيل وسكانهِ واعظم الذين وضعوا في عهد الاحتلال البريطاني اساس اصلاحهِ وتقدمهِ ووطدوا اركان الامن فيهِ وحسنوا حالتهُ المادية والادبية ورفعوا منزلتهُ ونظموا حكومتهُ

وليس المقام مقام ايراد تاريخ الراحل الكريم واحصاء اعمالهِ النافعة والبحث في تأثيرها العظيم في حاضر مصر ومستقبلها وفي حالة سائر بلدان المشرق المجاورة لها فانها لا تزال قريبين من عصرهِ ولم تبتعد عنهُ البعد الكافي لنراهُ من جميع جهاتهِ ونلم بجميع ما جرى فيهِ من جلائل الاعمال ونشاهد تأثيرها في ارتقاء الامة المصرية وسائر امم الشرق التي تنظر الى هذه البلاد نظرة الاعجاب المقرون بالغبطة

الناس يقولون اليوم كان لورد كرومر عظيماً وكان شهماً وكان نزيهاً واسع الصدر كبير القلب كبير العقل بعيد النظر مجموع الكلمة . ويقول الذين عرفوهُ وعاشروهُ وخالطوهُ سواء كانوا من تلاميذهِ في السياسة والادارة او من اصدقائهِ ومحبيهِ انهُ لورد كرومر كان أصدق صديق لمصر والمصريين بين الاجانب الذين قُدِّر لهم ان يشتركوا في حكمها وادارة امورها . وسيأتي زمان تتجلى فيهِ هذه الحقيقة للخاص والعام فيعرفها جميع ابناء هذه الديار كما عرفها الذين اتيح لهم معرفة مصلح مصر ووقفوا على نياتهِ وما كان في فؤادهِ من الرغبة الخالصة في خير هذا القطر وتقديم مصلحة سكانهِ على غيرها

ان تاريخ لورد كرومر في الشطر الاخير من حياتهِ تاريخ مصر وسير حركة الاصلاح

فيها. فالذي يكتب سيرتهُ من سنة ١٨٨٣ الى سنة ١٩٠٧ يكتب تاريخ الارتقاء والاصلاح في هذا القطر في تلك السنين الطويلة التي جازت مصر فيها دوراً من اهم ادوار وجودها وخرجت منهُ بعيد ذلك سلطنة راقية عديمة النظير في الشرق الادنى تمتاز بنظام اداري راقٍ ونظام قضائي متين ومالية قلَّ يوجد لها مثيل في غير اعظم دول الارض ثروة ومقاماً ونظام ري بات اعجوبة العصور وحديث كبار المهندسين. واذا لم يكن التقدم في سائر اركان الحضارة والمدنية قد بلغ مبلغهُ فيها فلأن من الاعمال ما يقتضي بطبيعتهِ زماناً اطول من الزمان المطلوب لسواهُ مهما اشتدت العزيمة وحسن القصد وبذل من المساعي والجهد

اليوم يقف الفلاح المصري يردُّ الطرف القهقرى في تاريخ الزراعة والضرائب فيذكر ما كان يعاني من المشقة والنفقة في ارواء اطيانهِ التي كان فدانها يباع ببضعة جنيهات وما كان يقاسي من العناء في نقل حاصلاتهِ الى الاسواق وما كان يستهدف لهُ من الظلم في دفع الضرائب والرسوم التي لا تحصى في مواعيدها وفي غير مواعيدها. يذكر ذلك كلهُ اما لانهُ خبرهُ بذاتهِ واما لانهُ سمعهُ من سلفهِ فيحمد الله تعالى على نعمهِ ويذكر باظهر الذي كان اكبر ساعٍ لتحسين حالة الري وضبط نظام الضرائب والرسوم وتسهيل اسباب النقل والانتقال واعفاء الفلاح من ضرائب كانت تهبط عائقهُ وانقاذهِ من المرابين الذين كانوا يمصون دمهُ ويعيشون في ترف ونعيم على تعبهِ وكدهِ

واليوم يقف المتقاضون امام المحاكم الاهلية والمحاكم الشرعية والمحاكم المختلطة فيذكرون الرجل الذي فاضل اعظم فضال لاصلاح حال تلك المحاكم سواء كان يرفع منزلتها او باختيار الاكفاء من ابناء مصر فجلوس في منصة القضاء او بالسعي لسن القوانين الملائمة لحالة القطر وحال سكانهِ او بتنظيم دوائرها ودفاترها واوراقها او بالاهتمام بترقيتها حتى تنال من الهيبة والكرامة ما يحق لها بحكم اشتغالها بتوطيد اركان العدل والحكم بين الناس بالانصاف

واليوم يقف الصناع ذاكرين للورد كرومر الغاء الضرائب والرسوم التي كانت تجبى منهم وتقيدهم في عملهم بكثرتها وعدم مطابقتها لقواعد الاقتصاد السياسي المرعية في كل بلاد تنزع الى الارتقاء والعلاء

واليوم يقف التاجر يذكر للورد كرومر مساعيهُ الحميدة في توسيع نطاق التجارة وترويجها وتنشيطها سواء كان بتنظيم المرافىء والارصفة او تسهيل المواصلات بسكك الحديد والنيل والبريد والتلغراف والتلفون او بتنشيط العاملين على زيادة ثروة القطر بتحسين زراعتهِ التي هي مصدر غناهُ وركن تجارتهِ

واليوم يقف محبو العلم ونشر التعليم ذاكرين للراحل الكريم مسعاهُ في توسيع نطاق العلم ونشر لواء المعرفة وايجاد نهضة ادبية عملية في انحاء القطر كان من نتائجها ما نشاهدهُ من انتشار المدارس في المدن والبنادر والقرى الكبيرة وشعور اعيان البلاد بوجوب مد يد المساعدة الى الذين لا تمكنهم حالتهم المالية من ارتشاف العلم الذي هو حياة الامم واساس عزها وعنوان مجدها

سيحفظ التاريخ للورد كرومر هذه الامور وسواها ويذكر لهُ ولجميع الذين ساعدوهُ من المصريين والاجانب الفضل العظيم بحسن القصد وفضاء زهرة العمر وانفاق قوة الشباب والكهولة والشيخوخة في عمل الاصلاح وتوطيد اركان العمران

وسيذكر التاريخ للورد كرومر انهُ بعد ما اقام في مصر ٢٤ سنة قاست في اثنائها اعظم المشروعات المالية والاعمال الهندسية خرج من هذا القطر وهو افقر في ثروته الخصوصية منهُ لما جاءهُ سنة ١٨٨٣ . ويذكر لهُ انهُ كان شديداً في الحق لا تأخذهُ فيهِ لومة لائم لا يسكت عن الظلم ولا يستهويهِ الباطل وانهُ كان مملوءاً بالشجاعة الادبية . وقد بث هذه الروح في كثيرين وشدد عزائم الفضلاء والمصلحين وانهُ فتح بابهُ لكل مظلوم كبيراً كان او صغيراً وانهُ كان واسع الصدر عالي الهمة بعيد النظر في امور الادارة وتصاريف السياسة

واذا قصرنا الكلام حتى الآن على مصر فليس ذلك لاننا نسينا السودان بل لان معظم اعمال الراحل الكريم الجليلة كانت في هذا القطر ولكن السودان مدين لهُ بحياتهِ الجديدة وخلاصهِ من ربقة المهدية وظلم التعايشي وخراب والدمار اللذين جعلاهُ قفراً بلقعاً وقاعاً صفصفاً فالسودان شريك مصر في ما جنت من فضلهِ وعلمهِ وخبرته وحنكتهِ وحبهِ لوادي النيل واهلهِ

وسيذكر التاريخ للورد كرومر ان نهضة مصر في عصرهِ كانت اكبر عامل في ثورة الخواطر التي شاهدناها في سائر بلدان الشرق الادنى المجاورة لهذا القطر فان ارتقاء مصر فتح العيون في تلك البلدان الى ما تستطيعهُ ان تتبع خطا هذا القطر فنرست فيها بذور النهضة العقلية والادبية والسياسية التي ثمنا آثارها قبل هذه الحرب الفروس . ومع ان لورد كرومر لم يتعرض لامور تلك البلدان مباشرة مراعاة للاحوال السياسية الدولية فقد كان اعظم سند للذين لجأوا الى هذا القطر فراراً من الظلم والاستبداد فانهُ حماهم ودافع عنهم وهم واولادهم واخوانهم وخلانهم يذكرون لهُ هذا الفضل على مدى العمر

لم تقم مصر لكرومر حتى الآن تمثالاً ولا انشأت تذكاراً مادياً ولكن ذكراهُ منقوشة

في قلوب جميع الذين جنوا الخير والنفع من وجوده في هذا القطر والذين قيض لهم التمتع بمعرفته والعلم بفضائله وصفاته فجميع هؤلاء يشاطرون اليوم الامة البريطانية العظيمة وعائلة بارنج الكريمة الحزن والاسى على فقد هذا المصلح العظيم والقطب الكبير ويسألون الله ان يعزي قلوبهم ويجعل حياة الفقيد قدوة صالحة لجميع الذين تسلم الاقدار اليهم زمام الشعوب ليسيروا بها في سبيل التقدم والارتقاء معتمدين على الحق والعدل والنشاط والاجتهاد والنزاهة والامانة التي هي اخلاق الكرام واركان مجد الشعوب وعنوان حضارتها ومدنيتها

ترجمته

ولد لورد كرومر في ٢٦ فبراير سنة ١٨٤١ وهو النجل التاسع للمرحوم هنري بارنج من آل بارنج المشهورين في انكلترا وكانت والدته كريمة الاميرال وندهام . تلقى علومه في احسن مدارس انكلترا وجامعاتها وامتاز على اقرانه بآداب اللغتين اليونانية واللاتينية ثم دخل المدرسة الحربية . وفي سنة ١٨٥٨ انتظم في المدفعية الملكية وخدم فيها الى سنة ١٨٦١ لما عين ياوراً للسر هنري ستوركس الحاكم العام للجزائر الايونية ثم سكرتيراً له في اثناء تحقيق العصيان الذي حدث في جزيرة جامبكا سنة ١٨٦٥ . ورقي سنة ١٨٧٠ الى رتبة كبتن ثم عين سكرتيراً خاصاً لابن عمه لورد نورثبروك حاكم الهند وظل منقلداً هذه الوظيفة الى سنة ١٨٧٦ لما رقي الى رتبة ماجور ومنح نشان كوكب الهند من الرتبة الثانية وعين مندوباً بريطانياً في ادارة الدين العمومي المصري . واعماله في هذه الادارة معروفة عند القراء لا تحتاج الى تبيان فانه كان صاحب التقرير المشهور الذي اصدرته لجنة التحقيق في سنة ١٨٧٩ . ولما تنازل الخديوي اسماعيل عن الاريكة الخديوية سنة ١٨٧٩ عين الماجور بارنج مراقباً بريطانياً عاماً وصار اليد العاملة في المراقبة الثنائية ولو بقي في مصر حينئذٍ لتغير تاريخ مصر الحديث على ما يظن وسار في غير المجرى الذي جرى فيه ولكن حكومته شعرت باحتياجها الى خدماته في الهند فعين عضواً مالياً في المجلس الخاص للحاكم العام في عهد اللورد ريبون سنة ١٨٨٠ . وظل في هذا المنصب الى سنة ١٨٨٣ لما عاد الى مصر وعين فيها وكيلاً بريطانياً وقنصلاً جنرالاً ومعتمداً مفوضاً في السلك السياسي . وقد ترك وراءه اثراً مذكوراً في مالية الهند وكافأته حكومته على خدماته هناك بنشان كوكب الهند من الدرجة الاولى وهو يخول حامله لقب سر

ولما وصل الى مصر سنة ١٨٨٣ رأى الادارة معتلة مختلة والنظام مفقوداً وكانت الحكومة البريطانية قد رغبت ايام المستر غلادستن في ان تجعل الحكم في مصر دستورياً

ولكن العوامل الدستورية كانت معدومة من البلاد حينئذ فاوفدت اللورد دنلوب الى مصر وعهدت اليه في وضع دستور خاص بها فقدمها وبعد البحث والدرس رفع تقريراً مسهباً الى حكومته لم يترك شاردة ولا واردة الا ضمنها اياهُ ولكنهُ كان مثل الطبيب الذي عرف الداء ولم يهتدِ الى الدواء الناجع فلما جاء السر افلن بارنج بعدهُ وجد القديم مفروكاً على قدمهِ

وكان المهدي قد شق عصا الطاعة في السودان في سنة ١٨٨٢ ورفع راية العصيان على الحكومة المصرية وعظمت هيبتهُ بين مواطنيهِ واستفحل شأنهُ ومالأتهُ البلاد كلها تقريباً فاستشير صاحب الترجمة في امرهِ فاشار باخلاء السودان وتركهِ للمهدي الى حين فقامت عليهِ قيامة الصحف والكتاب حينئذٍ وانتقدوهُ اشد انتقاد ولكن مجرى الاحوال صوَّب رأيهُ وخطأ رأي خصومهِ ومنتقديهِ . ومهما يكن من الامر فان اشارتهُ هذه دلت على صدق عزمهِ ورباطة جأشهِ واظهرت انهُ ممن لا يحاذرون التخلص من التبعة الملقاة على عواتقهم . وجارتهُ الوزارة البريطانية على رأيهِ هذا وقررت الحكومة المصرية الجلاء عن السودان وتقرر في الوقت عينهِ انقاذ الحامية المصرية في السودان وادى هذا القرار الى وقوع الاختيار على الجنرال غردون لهذه المهمة فعارض صاحب الترجمة حكومتهُ في ذلك مرتين ولكنهُ خاف ان يكون مخطئاً في حكمهِ في الجنرال غردون فلما استشارتهُ في الخيار للمرة الثالثة سلم بذلك ولكن ذهاب الجنرال غردون الى السودان لم ينقذها من المهدوية كما لا يخفى

ومرَّت السنون وضعفت قوة المهدي وخلفهِ عبد الله التعايشي من جراء الفتن والثورات الداخلية وكان الايطاليون في مصوع والبلجيكيون في الكونغو الحرة والفرنسويون في السودان الغربي قد اقتربوا تدريجاً الى وادي النيل . حان الزمان الذي تبت فيهِ مصر مسألة السودان رهن ترجمةٍ او تترك اعالي النيل لاناس كانت سياستهم منافية لسياسة بريطانيا العظمى ومصالحهم معاكسة لمصالحها في القطر المصري . وعرف اللورد كرومر بثاقب بصيرتهِ وبعد نظرهِ الوقت الذي يجب فيهِ الاقدام على العمل كما عرف الوقت الذي يجب الاحجام فيهِ عنهُ لما اشار بالجلاء عن السودان فتقرر بحسب اشارتهِ تسيير حملة على السودان فسارت تلك الحملة بقيادة المرحوم اللورد كتشنر واسترجعت السودان

وكان اللورد كرومر نصيب كبير في المفاوضات التي تمت ذلك بين بريطانيا العظمى وفرنسا وادت الى عقد الاتفاق المشهور في ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ وهو الذي تعهدت فيهِ فرنسا ان لا تعرض لشؤون مصر ولا تعرقل اعمال بريطانيا العظمى فيها وتترك للحكومة المصرية الحرية التامة في الامور المالية

واعتلت صحتهُ في سنة ١٩٠٧ فاضطر الى الاستعفاء بعد ما خدم مصر والمصريين ودولتهُ ايضاً ٢٤ سنة بالصدق والامانة والاخلاص وكافأتهُ حكومتهُ على خدماتهِ الجليلة بخمسين الف جنيه

وكان لوداعهِ مصر شأن كبير فاجتمع امراء مصر ووزراؤها وعلماؤها وادباؤها ووجهاؤها في الاوبرا الخديوية وخطب في حفلة الوداع مصطفى باشا فهمي رئيس النظار نيابة عن الوطنيين والكونت ده سربون نيابة عن الاجانب فاجابهما بخطبة نفيسة عربناها ونشرناها في صدر مقتطف يوليو سنة ١٩٠٧ . ولا بدَّ من ان يكون قد رأى قبل وفاتهِ ما حلق فراستهُ في مصر والمصريين فان الذين كانوا يجاهرون بانتقاد سياستهِ صاروا الآن من اكبر المعترفين بفضلهِ المجاهرين بشكرهِ . اما هو فلم ينسَ احداً من الذين لم اقل منهم في خدمة هذا القطر والمساعدة على الاصلاح الذي تم فيها . وقد كتب الينا حين مغادرتهِ القطر المصري يقول :

DEAR DR. SARRUF,

I regret that I should be obliged to leave Egypt without shaking hands with yourself, but I am sure that you will have understood the circumstances. I hope that you will accept the enclosed photograph of myself as a slight souvenir of our past relations and with it the expression of my sincere thanks for the powerful assistance which you have rendered for so many years to the cause of intellectual enlightenment and moral development in this country.

وترجمة ما يخص المقتطف من ذلك « ارجو ان تقبل صورتي المرسلة اليك طيَّ هذا كتذكار طفيف لملاقتنا السابقة ومعها شكري الخلص للمساعدة الكبيرة التي ساعدتَ بها مدة سنين كثيرة الارتقاء العقلي والادبي في هذه البلاد »

وكتب بمثل ذلك الى الدكتور ثمر واهدى اليهِ كتاباً سياسيًّا من مكتبتهِ

وقد قلنا فيما كتبناهُ عنهُ حينئذٍ انهُ كان لوداعهِ في محطة مصر احتفال عظيم جدًّا ولاستقبالهِ في مدينة لندن احتفال اعظم منهُ وقف فيهِ وفي عهد ملكها الملك الحالي واخوهُ حاسري الراس ووزراء الحكومة الانكليزية وقواد جيشها وذوو المقامات العالية ورحبت بهِ الجرائد والمجلات الانكليزية ترحيباً يدلُّ على انها تعدهُ اعظم رجل قام في الامة الانكليزية ولا غرابة لان العقلاء ينظرون بعين العقل الى النتائج الحاضرة والمستقبلة والفضل يعرفهُ ذووهُ

اما الرتب التي انعمت عليهِ حكومتهُ بها فهي رتبة بارون سنة ١٨٩٢ ورتبة فيكونت

سنة ١٨٩٧ ورتبة ارل سنة ١٩٠١: وعندهُ من النياشين نشان صليب الخمام الاكبر ونشان الامتياز والوشاح الاكبر من نشان القديسين ميخائيل وجورج وكثير سواها

وكان عضواً في الجمعية الملكية ودكتوراً في الآداب من جامعتي اكسفورد وكمبردج ولهُ تآليف عديدة اشهرها « مصر الحديثة » و « حب التوسع قديماً وحديثاً » و « عباس الثاني » و « فنون الحرب » وكتب حربية اخرى وترجمات كثيرة عن الكتَّاب اليونانيين القدماء ومقالة نفيسة عن هوميروس

وآخر منصب عمومي عهد اليهِ فيهِ رآسة اللجنة التي تحقق الآن في حملة الدردنيل وقد اشترك في كثير من المباحث السياسية والادبية في بلادهِ وكتب مقالات عديدة في الصحف فكانت الجرائد الانكليزية تتسابق الى نشرها لما لصاحبها من سمو المكانة والاحترام في نفوس الناس واشتهارهِ بالصراحة وتوخي الحقيقة والصدق في كل ما يقولهُ او يخطهُ . وقد كانت وفاتهُ في ليلة ٢٩ يناير الماضي

السر ادورد برنت تيلر

لما زرنا البلاد الانكليزية في صيف سنة ١٨٩٣ كان الحرُّ قد ضرب الحنابهُ فيها بما لم يعهد لهُ مثيل فقصدنا مدينة اكسفرد والتينا فيها صاحب الترجمة السر ادورد برنت تيلر وقلنا في ذلك ما نصهُ

« ولم نبلغ مدينة اكسفرد حتى تضرَّمت الهواجر وأسعرت المطامع

بيوم لو انَّ القمرَ يُصلَى بحرهِ غريضاً اتى اصحابهُ وهو مُنضَجُ

فاذكرني ايام الخماسين ولو خلا من لواقحها . بل الحرُّ في تلك البلاد اشدُّ وطأة على ساكنيها من الخماسين علينا لان بعضهم يقتع بهِ وقلما نسمع عن احد قضى في بلادنا . ولما وقف القطار وخرجنا الى المدينة التفتُّ يمنة ويسرة فاذا انا

ببلدٍ اغبر مصفرد الجوِّ لو قُدِفَ الكتَّان فيهِ لالتهبْ

فلا اكاد اصدق انني في اكسفرد التي سارت بذكرها الركبان ونشأ فيها نجبة رجال الانكليز وزهرة فتيانهم حتى مررتُ بين المدارس فرأيتها تتنافس في القدم وتتناطح بصوامعها السحاب وقد شيَّب الدهر نواصيها والبسها ثوب المهابة والوقار . ولم أكد اصدق ان عمر اقدمها بضع مئين من السنين لاننا نعدُّ مئي مبانينا القديمة بالالوف لا بالمئات